حلاق أنطاكية . . !!

بقلم الاستاذ نقولا شكرى

لو أنه كان من الممكن أن تجتمع لدى المرء دفعة واحدة كل ذكريات حياته ـ سواء أكانت هذه الحياة عادية ساذجة ـ أم مفعمة بالحوادث ، ما تألف من مجموعة هذه الذكريات شيء يمكن أن يجعل الإنسان كياناً على حدة ليس كسائر الناس ؛ ولعل الروائيين حين قصدوا خلق هذا الشذوذ فى حياة الانسان ، أرادوا أن تستحيل صور الحياة الدنيا ، إلى مثل من اختراع الخيال المحض ، وليس من ذكريات الحياة ما لا يشترك فيه الناس اشتراكاً ظاهراً .

وكأنى بشاعر عبقرى مثل (ديموسيه) ، حين يستخرج شغاف قلبه بارزة مكشوفة ، لكى يحدث الناس عن ذكريات حياته ، لا يختلف عن طير البحر الذى يقذف بهجته لصغاره حين يعز عليه وجود الغذاء ، ولكن (شكسبير) كان أيضاً شاعراً عبقرياً ، حين بلغ أوج المجد المسرحى عن طريق الحرفة الحقيرة ، التى بقيت مقترنة باسمه إلى بدء القرن التاسع عشر .

ولقد قال (فيغارو) الحلاق الذى اختلقته مخيلة (بومارشيه) لحدثه النبيل : « لا تحسبنى ياسيدى حلاقاً عادياً من أهل القرى ، لا أدرى من أمور الدنيا غير تحريك الموسى ! » .

وما كان (فيغارو) حلاقاً عادياً فى اشبيلية ، لا لأن(بومارشيه)أراد أن يجعله مصدر هداية ورشد ، كما جعل (هوغو) شخصية (هرنانى) الوضيعة ، ينبوع كرم ونبل ، وإنما يتفق ـ فى الغالب ـ أن يكون الحلاق لبقاً ، وصاحب نادرة وأقوال مستظرفة ؛ ومنذ عهد روما وأثينا ، كانت حوانيت الحلاقين ملتقى أهل الفراغ من المتظرفين رواة الأخبار .

وكان الشاعر (هوراس) إذا أراد أن يصف شيئاً بالذيوع والاشتهار قال : إنه ذاع فى كل بيوت الحلاقة ، كأن هذه الطائفة هى العمدة فى إذاعة الأخبار ؛ ومن دأب الحلاق فى الحقيقة أن يكون على بينة مما يجرى فى المدينة ، يظل أثناء أداء مهنته يتحدث إلى زبائنه

عن الأمور المختلفة،ومن هنا كان الحلاق ثرثاراً ، حتى إن بعضهم لا يستطيع ان يؤدى مهمته إلا إذا أقسم لزبائنه « آليت ألا أتكلم حتى أنتهى » .

غير أن التاريخ الذى جعل هذه الطائفة موضوع سخرية مرة ، لاتصافها بالثرثرة : روى - مع ذلك - أن (بطرس لابروس) حلاق الملك (سان لويس) تولى منصب الوزارة لعهد (فيليب الجرىء) ، وأن المعلم (أوليفيه الفزم) حلاق (لويس الحادى عشر) ، كان صفياً لذلك الملك وكاتماً لأسراره !

أما المثل الحقيق الذى لم يبلغه التاريخ من أسماء الحلاقين ، فهو لعمرى ذلك الكائن الحى الذى ما زالت تحفظه الذاكرة منذ نيف وعشرين سنة ، وتحفظه كما هو لم يطرأ عليه أى تطور منذ شهدناه لأول مرة فى بعض أحياء أنطاكية ، ذلك الموطن المقدس الذى كان يطلق عليه القدماء اسم « عروس المشرق » ، وكانت لنا وقتئذ فرصة أردنا أن نبعث فيها ذكريات الصبا ، ذلك الموطن الذى تألفه الروح ويعمر حبه القلب ، وإن شغلتنى عنه أعظم المواطن .

وطنى إن شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

هذا المثل ! هل نصفه بأنه حلاق أنطاكية ، كما وصف (بومارشيه) بطل روايته « بحلاق اشبيلية » اعتقاداً أنه :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد ! ؟ .

ولكن ، أين أنفة (فيغارو) الذى كان يتقدم فى الصالونات بأنه الحلاق المشهور ، ويستنكر أمام محدثيه أنه حلاق ، أو على الأقل حلاق عادى ! ؟

وقد روى التاريخ أن (ليسينوس) حلاق (أوغسطس قيصر) ، شيد له قبيل وفاته ضريحاً فخماً يضارع مقابر البطارقة ؛ لأن (ليسينوس) لم يفكر طول اشتغاله بحرفته فى أن يكون وزيراً ، أو كاتماً لأسرار إمبراطوره .

والمعلم حنا حكيم ، وإن شئت فقل الأوسطى حنا حكيم - وإن لم تتبرك يداه بلمس لحية شريفة ، مثل لحية القديس بولس ، ولم ينعم بعشرة مليك محب للفقراء ، مثل لويس الحادى عشر ، ولم يطمع فى أن يكون فى منصب الوزارة ، الذى بلغه (بطرس لابروس) - فإن المزايا المكتسبة التى حببته بها طبيعته الميالة إلى الفنون : يمكن أن ترفعه إلى مستوى بدنيه من عشرة العظماء ! فلقد حظى (شكسبير) بمقابلة (اليصابات) فى بلاطها الأنيق ، ولما تمض سنوات على قيادته الخيول على أبواب المسارح .

والأوسطى حنا حكيم، وإن كان العصر الجديد قد خلفه فى منتهى ما وصل إليه التأخر فى الحرفة ، فإنه رغم عدم اعترافه بالترقى المفروض على كل فرد فى صناعته ، كأنه لشدة

هوايته للتمثيل : والأدب ، والشعر ، وشغفه باقتناء الكتب،وكل من أركان الثقافة فى موطن قديم للشعر ، والحماسة ، والتظرف،هو «أنطاكية» التى أنجبت (فريجيا) و (سزودازوس)، وأطلق فيها اسم المسيحية لأول مرة على حواريى يسوع .

وفى الواقع لا يكاد يجرى حادث يتعلق بالتمثيل أو الأدب إلا كان نبأه عند الأسطى حنا حكيم ، وكان حانوته مصدر القول الفصل فيه، وهو على قدر ما يسخر من الحياة والناس أحياناً ، ويزدرى حرفته إلى جانب الفنون والآداب التى يهواها ، يأبى إلا أن يجعل زعامته مقترنة بفرض معترف به من جميع هواة الشعر والتمثيل فى « أنطاكية » ، وهو ألا يسلموا رءوسهم إلى حلاق غيره ، وأن يكون حانوته مجلسهم وناديهم ، وقد صار بهذا الاعتبار كأنه شيخ أهل الأدب والفنون ، وإن لم يكن شيخ الحلاقين !

ونعتقد لو أن (أوليفيه القزم) سأل مليكه الحب للعامة ، أن يحقق له أمنية ما طلب شيئاً أكثر من أن يكون ملكاً للرعاع ! ولكن مثل الأوسطى حنا حكيم كان يطلب بلا شك أن يكون ملكاً لأرباب التمثيل .

ولعل المزاج الخاص الذى جعل الأوسطى حنا حكيم عمدة فى فن التمثيل ، ولم يجعله أستاذاً فى حرفة الحلاقة ، حال بينه وبين جادة الترقى فى صناعته ، فبقى حانوته من بعد عشرين سنة مضت على عهدنا به فى ذيل حوانيت الحلاقين ، لم يستحدث فيه شىء ، كأنما أصابته حرفة الأدب ، ورغم هذا التأخر غير الاختيارى ـ الذى جعل حانوت الأوسطى حنا حكيم فى أخريات الحوانيت بلا تجديد ولا أناقة ـ فلم يكن فى « أنطاكية » نادى مثل ناديه يضم هواة التمثيل والأدب فى شبه (أكاديمية) صغيرة ، يتزعمها رجل طويل القامة ، أبيض الوجه ، عصبى المزاج ، هو الأوسطى حنا حكيم !

ونذكر أن بعض الحلاقين دعى يوماً إلى الامبراطور (أركايوس) ، فسأله عن الطريقة التى يختارها لحلق لحيته ، فأجاب الامبراطور : « طريقة الصمت » ، فإن مزاج الحلاق فى إذاعة الأخبار صيره مثلا فى الثرثرة ، ولذلك كان الأوسطى حنا حكيم لشدة ميله إلى التمثيل ورواية الشعر حلاقاً ، لا ينبغى أن يعنى من أداء القسم قبل أن يتسلم رأس « زبونه » ، فهو لم يألف أن يقول لزبائنه من هواة الأدب «آليت ألا أتكلم حتى أنتهى من مهمتى ... » ، وإنما يبلغ من جنونه بالتمثيل أحياناً أن يترك اللحية ، أو الرأس نصف حليقة ، ويتنقل فى إنشاد أو تمثيل ساعات طويلة ناسياً مهمته الحقيقية ، إلى جانب ما يتوقعه ـ خطأ ـ من إدخال السرور على زبائنه ، وهو من أجل ذلك يختارهم ممن يشاركونه هواية التمثيل والشعر .

وربما أدرك البعض من إهمال الأوسطى حنا حكيم مسألة التجديد والتمشى مع ضرورات

العصر ـ فى حرفة هى رأس التظرف والزينة ـ أنه رجل غير أنيق ، أو مشوش الهندام ، فإنا نؤكد أنه إذا كان قد أصابته ـ كما يقال ـ حرفة الأدب فى جوهر صناعته ، فخلفها مجردة من مستحدثات العصر ، فهو بعد الرجل الأنيق اللباس الذى جعل عنايته بزخرف هندامه : وجمال مظهره فى مستوى عنايته بالتمثيل .

أما روحه الساخرة ، وخفة طبعه ، وميله الجم إلى المجون ودقة تمثيله للحركات ، وذوقه فى إصدار النادرة ، فقد تكون فى مزاج كل حلاق ، ولكنها صفة ممتازة فى الأوسطى حنا حكيم .

وقد بلغ من تأثير هذه الصفة الممتازة فى حلاق « أنطاكية » أنه أورثها أولاده .

ونذكر أن (جيوتو) كان من الرعاة ، ولكنه خلق التصوير بالألوان ، ولم يكن هذا الابتكار ضرباً من ضروب العبث ، فلا بد أن (جيوتو) تتلمذ على مصور كبير هبط الريف الذى عاش فيه من قبل أن يصل إلى اختراعه ، كذلك وفق الأوسطى حنا حكيم ـ وهو طالب فى المدرسة ـ إلى الأستاذ الذى يتلقى عنه حب الفن ، ذلك هو الأستاذ (سليم فرنيق) الذى قام بنصيب وافر فى النهضة الأدبية بأنطاكية ، ولقد يذكره الأنطاكيون بهذا الفضل الذى جعل من الأوسطى حنا حكيم ممثلا وزعيماً لنهضة فنية ، مركزها حانوت حلاق !

ولكن ! ألم يكن أفلاطون الحكيم يبيع الزيتون فى سوق مصر ويشتغل بالفلسفة ؟ أو لم يكن شكسبير يمسك أعنة الخيل مأجوراً على أعتاب المسارح ؟

على أن حرفة الحلاقة التى رضيها (لابروس) إلى درجة الوزارة وألبسها (فيغارو) ، أو إذا شئت (بومارشيه) ، حلة مذهبة من الذكاء واللباقة وخفة الروح ، فانها ممثلة فى الأوسطى حنا حكيم وسيلة ثانوية للحياة ، فقد كان حلاق أنطاكية ممن يدينون بمذهب عبادة الفن للفن ، فليس عجيباً أن يجعل الحلاقة فى مرتبة ثانوية ، رغم أنها مصدر عيشه !

نقولا شكرى

أيها المشـــــترك !!

إن « المعرفة » تفخر كل الفخر ، بأنها عجلة المثقفين والعظماء ، وبأن مشتركيها من خاصة العلماء والأدباء فى جميع أنحاء الشرق العربى .

لذلك يهمها أن تحافظ على سمعتهم الأدبية من اتهامهم بعدم تقدير المشاق الصحفية ، وما تبذل فى سبيل « المعرفة » من مال وجهد .

فهل أديت واجبك نحوها ؟ وهل سددت اشتراكك ؟ تذكر قليلا ، وتفضل مشكوراً بتسديد ما عليك إن لم تكن سددته .